أنديتنا الموسيقية

للأستاذ حسني كنعان

كانت الموسيقى قبل ربع قرن ، تصدر في بلاد الشام عن مصر بطريق أسطوانات الحاكي ، وكان الموسيقيون لدينا يجهلون النوتة الغربية ، فيضع أحدهم الحاكي أمامه ويدير مفتاحه وينقل عنه الأغنية أو الدور أو البشرف أو الدولاب أو السماعي كما يسمعه دون تحوير أو تبديل . وكان أرباب هذه المهنة محتقرين لدينا حتى أن الأب إذا علم أن ولده قد ظهرت فيه مخايل المواهب الموسيقية تبرأ منه وأخرجه من داره ، ولبثت الحال على ذلك حتى انبثق فجر النهضة الكبرى في بلادنا عقب الحرب العالمية الأولى فتأسس أول ناد للموسيقى في دمشق ضم الصفوة المختارة من رجالات الفن عندنا ، فيهم المحامي والطبيب والموظف والتاجر والمزارع والصحفي وغيرهم ممن كان يمنعه الحياء ومسايرة البيئة من الظهور ، وبعد أن تمرّن أعضاؤه على القطع الموسيقية الصامتة والغنائية والموشحات وسواها ، وحذقوها على أساتذة فنيين معروفين بخبرتهم الواسعة وكفاءتهم ، بدأوا بإقامة أول حفلة موسيقية على مدرج الجامعة السورية الفخم فلم يبق أحد في دمشق ممن حضرها إلا وقد سرّ بما سمع وبما شهد من تنسيق وابداع وانسجام بين أعضائها الذين ظهروا على المرسح بمظهر من يبغي اعزاز هذا الفن وإزالة ما علق في نفوس القوم من احتقار أربابه وأشياعه ، ولا تزال ذكرى هذه الحفلة عالقة في النفوس برغم بُعد العهد بها . وأطلق على هذا النادي اسم « النادي الموسيقي السوري » وهو أقدم أنديتنا ، وقد قام بفضل أموال أعضائه المشتركين ، وريع حفلاته وكان رئيسه الفخري وهو أحد الرجال الوطنيين المعروفين ، لا يألو جهداً في جمع الإعانات له وإقامة حفلات خاصة لعظماء الرجال الذين يؤمون سوريا للاصطياف أو في مناسبات خاصة ، أذكر أن المرحوم طلعت حرب باشا باعث نهضة مصر الإقتصادية قد دعي مرة إليه ، وأقيمت له حفلة رائعة خرج منها مغتبطاً مسروراً ، وجادت يداه رحمه الله بإعانة مالية كان لها الوقع الحسن والأثر الحميد .

بقي هذا النادي محلقاً في سماء الفن حقبة من الزمن ، إلى أن أصابه ما يصيب كل حي في هذا الوجود من ذرور قرن الخلاف والشقاق بين أفراده . وظهر فيه داء الغرور والمنافسة فتفرق أعضاؤه بعد اتفاق ، واختصموا بعد وئام ، وكانت عاقبة ذلك أن

بحفريات علمية باشراف تلك الدولة أو الدول العربية على أن يحفظ ما يستخرج من آثار في متحف الدولة أو في متحف جامعة الدول العربية مثلا. وانى أرجح فكرة اشتراك دول الجامعة كلها في نفقات الحفر حتى لا تتسرب الآثار إلى الخارج فتنتقل إلى المتاحف الأوربية أو الأمريكية ، وأن تكون عمليات الحفر باشراف المتخصصين العرب .

ولما كان المؤتمر لم يعقد بعد وأن هناك متسعاً من الوقت لتدارك الحال أرجو من اللجنة الثقافية أن تهتم بهذه الناحية اهتماماً كبيراً بأن تجعل في رأس المواد التي ستدرس في المؤتمر موضوع دراسة الآثار العربية القديمة ، وأن ترجو من دول الجامعة ولا سيما اليمن والمملكة السعودية بذل العناية لخدمة التاريخ العربي القديم ، وأن تطلب من المتخصصين العرب أو المستشرقين التطوع للقيام بحفريات علمية أو دراسة الاطلال الموجودة تمهيداً للقيام بالحفر ، وأن تمنع الناس من نبش تلك الاطلال لسرقة الآثار أو هدمها لاستعمالها مادة للبناء . فالعبث بهذه الآثار عبث بتاريخ الأمة العربية الذي نريد إحياءه . وأن تقوم الجامعة بتخصيص المبالغ لإرسال المتخصصين إلى مواقع الآثار كما فعلت في إرسال نفر من العارفين بالمخطوطات إلى سوريا ولبنان لتصور ما هو موجود من المخطوطات .

وأن تخصص في قاعة المحاضرات مكاناً للتاريخ العربي قبل الإسلام وأن ترجو بهذه المناسبة من الذين سيمثلون دول الجامعة في مؤتمر الآثار توجيه أنظارهم نحو خدمة كل أثر عربي قديم ، وأن يكون لآثار العرب نفس الحظ الذي نالته الآثار القديمة الأخرى في الأقل ، وإن كنت أطلب المزيد لأنه تاريخنا المباشر ، ولأنه يوازي الآثار الأخرى في القدم والدرجة ، إذ أن من العار على العرب أن يتركوا متاحفهم خالية من آثارهم وهي كثيرة مطمورة فيتصور العالم أنهم أمة همجية ليتكون لها تاريخ قبل الإسلام وأنهم كانوا عالة على حضارات الأمم الأخرى أو أنهم كانوا نقلة تعوزهم قوة الإبداع والابتكار .

جواد علي